لذلك قال ﴿ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ .. (٦١) ﴾ [القصص] أى : حتماً ﴿ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٦١) ﴾ [القصص] وهو لا محالة زائل ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) ﴾ [القصص] أى : للعذاب .

وهذه الكلمة ﴿ الْمُحْضَرِينَ (٦١) ﴾ [القصص] لا تستعمل فى القرآن إلا للعذاب ، وربما الذى وضع كلمة (مُحضر) قصد هذا المعنى ؛ لأن المحضر لا يأتى أبداً بخير .

ويقول تعالى فى موضع آخر : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) ﴾ [الصافات]

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) ﴾[الصافات]

ثم يقول سبحانه مُؤكداً هذا الإحضار يوم القيامة حتى لا يظن الكافر أن بإمكانه الهرب :

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) ﴾

والسؤال هنا للذين أشركوا ، لا لمن أُشرك بهم ، وكلمة ﴿ وَيَوْمَ .. (٦٢) ﴾ [القصص] منصوبة على الظرفية ، لا بُدَّ أن نُقدِّر لها فعلاً يناسبها ، فالتقدير : واذكر يوم يناديهم ، والأمر لرسول الله ﷺ ، لكن لمن يذكره رسول الله ؟ يذكره للكافرين بهذا اليوم يوم القيامة .

والآية تعطينا لقطة من لقطات هذا اليوم الذى هو يوم الواقعة التى لا واقعةَ بعدها ، ويوم الحاقَّة أى الثابتة التى لا تَزَحْزُحَ عنها ، ويوم الصَّاخة أى : التى تصخّ الآذان التى انصرفتْ عنها فى الدنيا ، ويوم الطامة التى تطمُّ ، ويوم الدين ، أى : الذى ينفع فيه الدين .

والحق سبحانه يذكر هذه اللقطة لأمرين :

الأول : أن رسول الله ﷺ عُودى وأُوذى وهزىء به وسُخر منه ، واجتمعت عليه كل وسائل النكال من خصومه فبيَّتوا له بمكر ، وصنعوا له سحراً .. إلخ .

وحين تجد دعوة تُقابل بهذه الشراسة ، فاعلم أنها ما قُوبلت هذه المقابلة إلا لأنها ستهدم فساداً ينتفع به قوم ترهبهم كلمة الإصلاح ؛ لأنها تصيبهم فى مصالحهم وفى شهواتهم وفى جاههم وعنجهيتهم وطغيانهم ، فطبيعى أن يقفوا فى وجهها .

لذلك نجد كثيراً من الغربيين يعرفون عظمة الإسلام من شراسة عداوة خصومه ، يقولون : لو لم يكُنْ هذا الدين ضد فسادهم ما ائتمروا عليه ، ولو كان أمراً هيِّناً لتركوه للزمن يمحوه ، لكنهم أيقنوا أنه الحق الذى سيُذهب باطلهم ، ويقضى على طغيانهم .

فالحق سبحانه يأمر رسوله ﷺ أنْ يذكر ذلك اليوم يذكره لنفسه ، ويذكره لقومه ليعتبروا ، فربما إذا سمعوا ما فى هذا اليوم من القسوة والخزى والنكال ربما راجعوا أنفسهم فتابوا إلى الله .

إذن : ليس حظ الله تعالى من هذا العمل أنْ يُرهبهم إنما ليحذرهم ، لئلا يقع منهم الكفر الذى يُوقفهم هذا الموقف ، كما تُبشِّع لولدك عاقبة الإهمال ، وتُحذِّره من الرسوب لينفر من أسبابه ، ويبحث عن أسباب النجاح .

يقول تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ .. (٦٢) ﴾ [القصص] وقد ناداهم فى الدنيا : يا أيها الناس ، يا بنى آدم فصمُّوا آذانهم ، وأعرضوا عن نداء الله ، واليوم يناديهم نداءً لا يملكون أنْ يصمُّوا آذانهم عنه ؛ لأنه

﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر] فكأن الحق يُذكِّرهم بهذا اليوم ، لعلهم يرعوون ، ولعلهم يرجعون .

الأمر الثانى : أن الآية جاءت تسليةً لسيدنا رسول الله يقول له ربه : لا تيأس مما يصنعون معك ، ولا يحزنك كيدهم وعنادهم ؛ لأننى سأصنع بهم كيت وكيت . وأنت تستطيع أن تدرك سرَّ هذا الإيعاز النفسى فى نفس المضطهد وفى نفس المظلوم حين يشكو لك ولدك أن أخاه ضربه أو أهانه فتقول أنت لتُرضيه : انتظر سوف أفعل به كذا وكذا ، فترى الولد ينبهر بهذه العقوبة المسموعة ويسعد بها ، وكذلك حين يسمع رسول الله العقوبة التى تنال أعداءه على ما حدث منهم يسعد بها ، وتُسرِّى عن نفسه ما يلاقى .

ومضمون النداء ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) ﴾ [القصص] فلم يقُلْ شركائى ويسكت ، إنما وصفهم ﴿ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) ﴾ [القصص] لأنه سبحانه واحد لا شريك له ، وهؤلاء شركاء فى زعمهم فقط ، والزعم كما يقولون : مطية الكذب ؛ لذلك لن يجدوا جواباً لهذا السؤال ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) ﴾ [القصص]

ولو كان أمامهم شركاء لقالوا : ها هم الذين أضلُّونا ، فأذقْهم يا رب العذاب ضعْفين ، لكنهم لم يجيبوا فهذا دليل على أنهم غير موجودين ، لقد وقف هؤلاء المشركون حائرين ، لا يدرون جواباً كما قال تعالى : ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ .. (٦٦) ﴾ [القصص]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) ﴾

والكلام هنا للشركاء الذين أضلوا المشركين وأغووهم ، ومعنى ﴿حَقَّ عَلَيْهِم .. (٦٣)﴾ [القصص] أى : ثبت ووقع ، فهو أمر لا محالة منه ، ولم يعد هناك مجال لزحزحته عنهم ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١)﴾ [الصافات]

وقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنطِقُونَ (٨٥)﴾ [النمل]

لكن ، ما هو القول الذى وقع وثبت لهم وحَقَّ عليهم ؟ القول : أن كلَّ واحد له مكان عندى فى الجنة على فَرْض أنكم جميعاً آمنتم ، وكل واحد له مكان فى النار على فَرْض أنكم جميعاً كفرتم .

وماذا قالوا ؟ قالوا : ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا.. (٦٣)﴾ [القصص] سبحان الله الآن تقولون ربنا وتعترفون بربوبيته تعالى ، كما قال تعالى فى شأن فرعون : ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١)﴾ [يونس]

الآن تعترفون بعد أنْ سُلب منكم الاختيار ، ولم تعُد لكم إرادة حتى على جوارحكم وأبعاضكم ، فيدُكَ التى كنت تبطش بها ، ورجْلك التى كنت تسعى بها ولسانك .. كلها خرجت عن إرادتك وطَوْع أمرك ؛ لأنها الآن طَوْعٌ لأمر الله ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾ [النور]

ومعنى ﴿هَٰؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا .. (٦٣)﴾ [القصص] أى : المشركين ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا .. (٦٣)﴾ [القصص] أى : لنكون سواء ، هذه علَّة غوايتهم ، أن يكونوا فى الخُسْران سواء ، وإلا فأهل الباطل يسعون جاهدين للإيقاع بأهل الحق ليشاركوهم باطلهم ، وليكونوا أمثالهم .

وهذه المسألة تعطينا السيال النفسى لكل منحرف حين يرى ملتزماً مستقيماً ، لا يشاركه فساده وانحرافه ، فيعزّ عليه أنْ يكون فى الهاوية وحده ، ولماذا يمتاز عنه الآخرون ؟ واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً .. (٨٩) ﴾ [النساء]

ألا ترى أهل الباطل والفساد والفجور يهزءُون من أهل الحق ويسخرون منهم ، ليُزهدوهم فى الخير والصلاح ، وليغروهم بما هم فيه ، حتى أصبح الإنسان الملتزم بدينه وشرع ربه لا يسلَم من ألسنتهم ، كما يقول تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) ﴾ [المطففين]

وليت الأمر ينتهى عند الغَمْز واللمز ، إنما يتمادى هؤلاء ، فيجعلون من سخريتهم بأهل الإيمان والطاعة مادةً للمسامرة والتسلية ﴿ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) ﴾ [المطففين] يعنى : فرحين مسرورين بما نالوه من أهل الطاعة ، مما يدلّ على أنهم جميعاً تُسعدهم هذه المسألة وتُرضى شيئاً فى نفوسهم المريضة الحاقدة .

لكن المؤمن من طبيعته يحب أنْ يُكرم ، وأنْ ينأى بنفسه عن مجاراة هؤلاء ، لذلك يتولّى ربه - عز وجل - الدفاع عنه يقول له : لا تحزن فسوف نقتصُّ لك ، ونسخر منهم ، ونجعلهم أضحوكة فى يوم باقٍ لا ينتهى فيه عذابهم :

﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يسترضى عباده المؤمنين : أيعجبكم

ما آلوا إليه ؟ أَقَدَرْنا أن نجازيهم على ما اقترفوه فى حقكم ؟ نعم يا رب ، فسخرية الكفار من أهل الإيمان فى دار الباطل الفانية انقلبت سخرية منهم فى دار الحق الباقية ، وهى سخرية دائمة لا نهاية لها .

إذن : ﴿ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا .. (٦٣) ﴾ [القصص] يعنى : حتى نكون سواء ، لا يكون أحدنا أحسن من الآخر ، ومن هذا المنطلق أغوى إبليسُ آدمَ ، لأنه لما طغى وطُرد من رحمة الله ، ومن الصفائية التى كان ينعَم بها مع الملائكة . أراد أنْ يأخذ آدم بل وذريته إلى هذا المصير ، فقد حَزَّ فى نفسه أن يلاقى هذا المصير وحده ، فى حين ينعَم آدم وذريته برحمة الله ورضوانه .

لذلك نجد إبليس - لعنه الله - لا يكتفى بأن تُغوى ذريته ذرية آدم ، إنما يطلب من الله أنْ يُنظره إلى يوم البعث ليباشر بنفسه هذه الغواية ، فهو (المعلم) الكبير ، وكأنه يحذر أن إمكانات ذريته فى الغواية قد لا ترضيه ؛ لذلك يتولى بنفسه هذه المهمة فيقول : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف]

والبعض يفهم قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَنظِرْنِي[1] إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) ﴾ [الأعراف] أن الله تعالى أجاب إبليس إلى ما طلب ، لكن ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) ﴾ [الأعراف] ليست إجابةً ، إنما تقرير لشىء حادث بالفعل قبل أن يطلب ، فالمعنى أن سؤالك ليس له معنى ؛ لأنك من المنظرين فعلاً ، لماذا ؟ قالوا : لأن الله تعالى يريد أنْ يظلَّ إبليس الذى أغوى آدم وأخرجه من الجنة باقياً أمام ذريته ليُذكّرهم دائماً : هذا الذى أغوى أباكم آدم .

---

(١) أنظره : أخّره وأمهله وتأنّى عليه . وقوله : ﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) ﴾ [الأعراف] أى : أمهلنى وأخّر حسابى وعقابى إلى يوم القيامة . [القاموس القويم ٢/٢٧٣] .

وقولهم : ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا .. (٦٣)﴾ [القصص] لنا وقفة مع ﴿هَٰؤُلَاءِ .. (٦٣)﴾ [القصص] وهى اسم إشارة للجمع بنوعيه ، تقول : هؤلاء الرجال ، وهؤلاء النساء ، وهى عبارة عن : الهاء للتنبيه ، وأولاء اسم إشارة ، وكذلك فى هذا ، هذه ، هذان ، هاتان . فالهاء فيها للتنبيه لتنبه السامع أنك ستتكلم ليعطيك سمعه ، ويهتم بما تقول ، فلا يفوته من كلامك شىء .

هذا حين تخاطب مثلك لأنه يحتاج إلى تنبيه ، أما إذا خاطبتَ ربك - عز وجل - فمن سوء الأدب أنْ تستخدم فى خطابه أداة التنبيه ، كما استخدمها المشركون ، فما داموا قد قالوا ﴿رَبَّنَا .. (٦٣)﴾ [القصص] فليس من الأدب أن يقولوا ﴿هَٰؤُلَاءِ .. (٦٣)﴾ [القصص] أيُنبِّهون الله عز وجل ؟

لذلك نلحظ هذا الأدب فى خطاب نبى الله موسى - عليه السلام - فيما حكاه عنه القرآن : ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤)﴾ [طه] فقال (أولاء) بدون هاء التنبيه تأدُّباً مع ربه عزَّ وجلَّ .

ونلحظ أنك لا تجد خطاباً من الكفار إلا باستخدام هؤلاء : ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا .. (٣٨)﴾ [الأعراف] ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا .. (٨٦)﴾ [النحل] أما المؤمن فلا يليق به أبداً أن يُنبِّه الله تعالى ، بل ولا تصدر من مؤمن لمؤمن لأنه دائماً منتبه .

ثم يقولون : ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣)﴾ [القصص] الآن ينكصون كما قالوا من قبل ﴿رَبَّنَا .. (٦٣)﴾ [القصص] يقولون الآن ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ .. (٦٣)﴾ [القصص] لكن هيهات تنفعهم هذه البراءة ، لقد انتهى وقتها ، ومضى زمن التكليف والاختيار ، والآن وقت الحساب

وسَلْب الإرادة والاختيار ، وما أشبههم بفرعون حين قال الله له :
﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١)﴾ [يونس]

وقولهم : ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣)﴾ [القصص] يقول الشركاء : ما كان معنا قوة قهر نحملكم بها على عبادتنا ، ولا قوة سلطان أو حجة نقنعكم بها ، إنما كنتم فى انتظار إشارة منا ، كما قال كبيرهم إبليس : ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم .. (٢٢)﴾ [إبراهيم]

إذن : فهؤلاء المشركون كانوا يعبدون أنفسهم وذواتهم ؛ لأن الشركاء كانوا أصناماً أو غيرها ، وليس لهم منهج يتكلَّمون به ، ويدْعُون الناس إلى عبادتهم به ، وإلا فماذا قالت الأصنام أو الشمس أو النجوم لمن عبدها ؟ بِمَ أمرتهم ، وعمَّ نهتْهم ؟

إذن : هو إله بلا منهج وبلا تكاليف ، وهذا ما يريده المشركون ؛ لأن الذى يُتعب الناس فى قضية الإيمان بالألوهية ما تقتضيه من تكاليف ، وما تفرضه من أمر أو نهى يحول بين النفس البشرية وما تشتهى ، ويُوقفها عند حدود لا تتعداها .

إذن : ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣)﴾ [القصص] بل يعبدون ذواتهم ، ويعبدون شهواتهم ورغباتهم ، وما أسهلَ أن يعبد الإنسان آلهة لا تلزمه بشىء ، فيسير فى حياته على هواه ، وهذه هى التى روجَتْ لعبادة هذه الآلهة .

لذلك فإن الحق سبحانه يريد أنْ يلزم الإنسان حجة أن نفسه هى الوسيلة الأولى لشهواته ، وإلا فلو أن المسألة كلها وسوسة شيطان ، فمَنْ أغوى إبليس بالعصيان أولاً على حَدِّ قَوْل الشاعر :

* إبليسُ لما عَصى مَنْ كان وسْوَسَهُ ؟ *

إذن : فهى كبرياء النفس ورغباتها ، وليس للشيطان إلا أنْ يُلوِّح لها فتقع ؛ لذلك جاء فى الحديث الشريف : « إذا أقبل رمضان فُتحت أبواب الجنة ، وغُلِّقت أبواب النار ، وسُلْسلت الشياطين »[1] .

وما دامت الشياطين سُلسلت ، فليس لها حركة مع الإنس ؛ لأن الله تعالى يعلم منّا أنَّا نُعلِّق كل معاصينا على الشيطان ، فكأنه سبحانه يقول : ها هى الشياطين صُفِّدت وسُلْسلت ، فمَنْ أغواكم وزيَّن لكم حال سَلْسلتها ؟ إذن : هى نفسك التى توسوس لك ؛ لذلك نقول : كل معصية تقع فى رمضان ليس للشيطان فيها نصيب ، إنما هى شهوة النفس .

وسبق أنْ بيَّنا كيف نُفرِّق بين المعصية متى تكون من الشيطان ؟ ومتى تكون شهوة نفس ؟ إنْ كانت المعصية تُوقفك عندها لا تتزحزح عنها إلى غيرها ، فاعلم أنها من نفسك ، أما إنْ عزَّتْ عليك معصية ففكَّرْتَ فى غيرها ، فهى من الشيطان ؛ لأنه والعياذ بالله يريدك عاصياً على أى وجه ، وبأىِّ طريقة فينقلك إلى معصية أخرى يستطيع أنْ يُوقعك فيها ، على خلاف شهوة النفس ، فهى تريد شيئاً بذاته لا تريد غيره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٢٨١) ، والنسائى فى سننه (٤/١٢٨) من حديث أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « إذا دخل رمضان فتحت أبواب الرحمة ، وغلقت أبواب جهنم ، وسلسلت الشياطين » .

وسبق أن ناداهم ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) ﴾ [القصص] أي : في زعمكم ؛ لأنه سبحانه ليس له شركاء ، وهنا يقول لهم ﴿ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) ﴾ [القصص] ولم يقُلْ شركائي ، مع أنهم اتخذوهم شركاء لله .

فمعنى ﴿ شُرَكَاءَكُمْ .. (٦٤) ﴾ [القصص] أفي دعوى الألوهية ؟ لا ، لأنهم تابعون لهم ، إذن : فما معنى ﴿ شُرَكَاءَكُمْ .. (٦٤) ﴾ [القصص] ؟ قالوا : الإضافة تأتي بمعَانٍ ثلاثة : إما بمعنى (من) مثل : أردب قمح أي : من قمح ، أو بمعنى (في) مثل : مكر الليل أي : مكر في الليل ، أو : بمعنى (لام) الملكية مثل : قلم زيد أي : قلم لزيد .

فالمعنى هنا ﴿ شُرَكَاءَكُمْ .. (٦٤) ﴾ [القصص] أي : من جنسكم أو فيكم يعني : لا يتميز عنكم بشيء ، والإله لا بُدَّ أن يكون من جنس أعلى ، فإنْ كان من جنسكم ، فهو مُسَاوٍ لكم ، لا يصلح أن تتخذوه إلهاً .

ومعنى ﴿ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ .. (٦٤) ﴾ [القصص] يعني : نادوهم لينصروكم ، ويشفعوا لكم ، كما قلتم : ﴿ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ .. (١٨) ﴾ [يونس]

وقلتم : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣) ﴾ [الزمر]

إذن : فنادوهم ليُقربوكم من الله ، وليشفعوا لكم ، والذي يقوم بهذه المهمة لا بُدَّ أنْ يكون له منزلة عند الله يضمنها ، وهل يضمن هؤلاء الشركاء منزلة عند الله ؟ كيف وهم لا يضمنونها لأنفسهم ؟

﴿ فَدَعَوْهُمْ .. (٦٤) ﴾ [القصص] يا شركاءنا ، يا مَنْ قُلْتم لنا كذا وكذا أدركونا ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ .. (٦٤) ﴾ [القصص] لأنهم مشغولون

بأنفسهم ﴿ ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون (٦٤) ﴾ [القصص] يعنى : لو كانوا يهتدون بهدْى الله ، وهدْى رسوله ، ويروْن العذاب الذى أنذرهم به حقيقة وواقعاً لا يتخلفون عنه لَمَا حدث لهم هذا ، ولما واجهوا هذه العاقبة .

أو : أنهم لما رأوا العذاب حقيقة فى الآخرة تمنَّوا لو أنهم كانوا مهتدين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦) ﴾

قال هنا أيضاً ﴿ يناديهم .. (٦٥) ﴾ [القصص] فما الغرض من كل هذه النداءات ؟ إنها للتقريع وللتوبيخ وللسخرية منهم ، وممَّنْ عبدوهم واتبعوهم من دون الله ، ومضمون النداء : ﴿ ماذا أجبتم المرسلين (٦٥) ﴾ [القصص] والإجابة : موافقة المطلوب من الطالب ، فماذا كانت إجابتكم لهم بعد أن آمنتم بإله ، أأخذتُم بما جاءوا به من أحكام ؟ أعلمتم منهم علماً يقينياً حقاً ؟

وهذا الاستفهام للتعجيز ؛ لأنهم إنْ حاولوا الإجابة فلن يجدوا إجابة فيخزون ويخجلون ؛ لذلك يقول بعدها ﴿ فعميت عليهم الأنباء .. (٦٦) ﴾ [القصص] أى : خفيَتْ عليهم الحجج والأعذار وعموا عنها فلم يروْهَا ﴿ فهم لا يتساءلون (٦٦) ﴾ [القصص] لا يملكون إلا السكوت كما قالوا : جواب ما يكره السكوت ، وكما قال سبحانه : ﴿ ولا يسأل حميم حميماً (١٠) ﴾ [المعارج]

وهؤلاء لا يتساءلون ؛ لأنهم فى الجهل سواء ، وفى الضلال شركاء ، وكل منهم مشغول بنفسه ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) ﴾[عبس]

وكما سُئِل المشركون ﴿ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) ﴾ [القصص] فى موضع آخر يسأل الرسل : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ .. (١٠٩) ﴾ [المائدة] أى : فيما علمتم من العلم ، وأوله : علم اليقين الأعلى ، وثانيها : علم الأحكام ، فبماذا أجابكم الناس ؟

وتأمل هنا أدب الرسل ومدى فهمهم فى مقام الجواب لله ، وهم يعلمون تماماً بماذا أجاب أقوامهم ، وأن منهم مَنْ آمن بهم ، وتفانى فى خدمة دعوتهم وضحَّى واستشهد ، ومنهم مَنْ كفر وعاند ، ومع ذلك يقولون : ﴿ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١٠٩) ﴾ [المائدة]

فكيف يقولون ﴿ لا عِلْمَ لَنَا .. (١٠٩) ﴾ [المائدة] وهم يعلمون ؟ قالوا : لأنهم غير واثقين أن مَنْ آمن آمن عن عقيدة أم لا ، فهم يأخذون بظواهر الناس ، أما بواطنهم فلا يعلمها إلا الله ، كأنهم يقولون : أنت يا ربنا تسأل عن إجابة الحق لا عن إجابة النفاق ، وإجابة الحق نحن لا نعرفها ، وأنت سبحانك علاَّم الغيوب .

إذن : جعلوا الحق - تبارك وتعالى - هو السُّلْطة التشريعية ، والسلطة القضائية ، والسلطة التنفيذية فى محكمة العدل الإلهى التى سيُعلن فيها على رؤوس الأشهاد ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ .. (١٦) ﴾ [غافر]

والسؤال عند العرب يُطلق ، إما للمعرفة حيث تسأل لتعرف ، كما يسأل التلميذ أستاذه ، أو يكون السؤال للإقرار بما تعرف ، كما يسأل

الأستاذ تلميذه ليقرَّ على نفسه ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ (٣٩) ﴾ [الرحمن] أى : سؤالَ علم ؛ لأننا نعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) ﴾ [الصافات] أى : سؤال إقرار منهم ، وإنْ كان كلامى يوم القيامة حجة ، لأنه لا مردَّ له ، لكن مع ذلك نسألهم ليقروا هم ، وليشهدوا على أنفسهم .

والحق - تبارك وتعالى - يدلُّك على أنه تعالى يُبشِّع مظاهر يوم القيامة على الكافرين ، لا لأنه كاره لهم ، بل يريدهم أنْ يستحضروا هذه الصورة البشعة لعلهم يرعوون ويتوبون ؛ لذلك يفتح لهم باب التوبة لأنه رب ورحيم .

لذلك جاء فى الحديث القدسى : « قالت الأرض : يا رب إئذن لى أنْ أخسف بابن آدم فقد طَعم خيرك ومنع شكرك . وقالت الجبال : يا رب إئذن لى أنْ أخرَّ على ابن آدم فقد طَعم خيرك ومنع شكرك . وقالت البحار : يا رب إئذن لى أنْ أغرق ابن آدم فقد طَعم خيرك ومنع شكرك . فقال تعالى : دعونى وخلقى لو خلقتموهم لرحمتموهم ، دعوهم فإنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم»[(١)] .

أعالجهم بالترغيب مرة ، وبالترهيب أخرى ، أشوِّقهم إلى الجنة ، وأخوِّفهم من النار ، وأفتح باب التوبة ، وفتْح باب التوبة ليس رحمة من الله للتائب فقط ، ولكن رحمة لكل مَنْ يشقى بعصيان غير التائب .

(١) أخرج أحمد فى مسنده (١/ ٤٢) من حديث عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال : « ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات ، يستأذن الله عز وجل أن ينفضخ عليهم ، فيكفه الله عز وجل » ضعَّف إسناده الشيخ أحمد شاكر فى تحقيقه للمسند (١/ ٢٨٦) .

ولو أُغلق باب التوبة فى وجه العاصى ليئس وتحول إلى (فاقد) يشقى به المجتمع طوال حياته ، إذن : ففتْح باب التوبة رحمة بالتائب ، ورحمة بمجتمعه ، بل وبالإنسانية كلها ، رحمة بالعاصى وبمَن اكتوى بنار المعصية .

﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

لماذا استخدم هنا (عسى) الدالة على الرجاء بعد أنْ قال ﴿ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [القصص] ولم يقل : يكون من المفلحين فيقطع لهم بالفلاح ؟

قالوا : لأنه ربما تاب ، لكن عسى أن يستمر على توبته ليستديم الفلاح أو نقول أن (عسى) من الله تدل على التحقيق ، وسبق أنْ قُلْنا : إن الرجاءات على درجات : فالرجاء فى المتكلم أقوى من الرجاء فى الغائب ، فإنْ كان الرجاء فى الله فهو أقوى الرجاءات كلها .

لذلك يقول سبحانه فى خطابه لنبيه محمد ﷺ : ﴿ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الإسراء] فأىُّ رجاء أقوى من الرجاء فى الله ؟

إذن : (عسى) رجاء حين تصدر ممن لا يملك إنفاذ المرجو ، وتحقيق حين تصدر ممَّنْ يملك إنفاذ المرجو ، وهو الحق سبحانه وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

كنا ننتظر أنْ يُخبرنا السياق بما سيقع على المشركين من العذاب ، لكن تأتى الآية ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [القصص] وكأن الحق سبحانه يقول : أنا الذى أعرف أين المصلحة ، وأعرف كيف أُريحكم من شرِّهم ، فدعونى أخلق ما أشاء ، وأختار ما أشاء ، فأنا الرب المتعهد للمربى بالتربية التى تُوصله إلى المهمة منه .

والمربَّى قسمان : إما مؤمن وإما كافر ، ولا بُدَّ أنْ يشقى المؤمن بفعل الكافر ، وأنْ يمتد هذا الشقاء إنْ بقى الكافر على كفره ؛ لذلك شَرعتُ له التوبة ، وقَبلْتُ منه الرجوع ، وهذا أول ما يريح المؤمنين .

ومعنى : ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [القصص] يعنى : لا خيارَ لكم ، فدعونى لأختار لكم ، ثم نفِّذوا ما أختاره أنا .

أو : أن هذه الآية ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [القصص] قيلت للردِّ على قولهم : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف] . يقصدون الوليد بن المغيرة أو عروة بن مسعود الثقفى ، فردَّ الله عليهم : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف]

فكيف يطمعون فى أنْ يختاروا هم وسائل الرحمة ، ونحن الذين